Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥

وهذا الرحيق الموسيقى الذى كان يعرف ابن زيدون كيف يذيعه وكيف يمتعنا به فى كئوس إيقاعه كان يستمدّه من تفس الإيقاعات الموروثة للشعر العربى إيقاعات القصيدة، وقد شُغف بهذه الإيقاعات شغفًا جعله لا يشغل نفسه بإيقاعات الموشحات الجديدة التى أولع بها شعراء الأندلس من حوله. ونحن نعرف كيف عُنى أصحاب الموشحات بإيقاعاتها اللحنية، تارة يقصِّرون شطورها، وتارة يُعْنَوْنَ باختيارها من أرشق الألفاظ وأكثرها عذوبة، وبذلك كفلوا لموشحاتهم متاعًا موسيقيًّا خلابا، حتى يتلافوا ما نقصها من إيقاعات القصيدة الموروثة، سواء من حيث تعدّد الأوزان فيها أو من حيث تعدد القوافى. وكأن ابن زيدون أراد أن يلقّن الوشّاحين من حوله درسًا، مثبتًا لهم أن إيقاعات القصيد تسكب من الرنات الصوتية ما لا تستطيع الموشحات أن تسكبه إلا فى الندرة، وغاية ما فى الأمر أنه يعوزها شاعر يعرف كيف يضبط ضبطًا دقيقًا آلات ألفاظه وذبذباتها الموسيقية، كما يعرف خصائصها وطاقاتها الصوتية، بحيث يختار منها لأشعاره ما يجعل إيقاعها تارة رنَّانا رنينًا ضخمًا، وما يجعله تارة أخرى هامسًا همسًا ناعمًا. ليس العيب إذن فى القيثارة العتيقة، وإنما هو فى الأيدى التى تَضْرب علبها فإذا أتيحت لها يَدٌ كيَدِ ابن زبدون استطاعت أن تحملنا على أجنحة إيقاعه إلى جوٍّ موسيقىّ باهر بما فيه من ألحان وأنغام.

ولعلّى لا أبالغ إذا ذهبت إلى أن ابن زيدون كان شاعر القصيدة الأوّل فى الأندلس الذى ثبَّت إيقاعاتها ودعمها أمام الوشاحين وموشّحاتهم وما حققوا لها من تلحينات وتلوينات نغمية، إذ ظلت القصيدة على مرّ الزمن تظفر بالموشحة، وظلّ لها القِدْحُ المعلَّى. وليس ذلك فحسب فإن ابن زيدون لفت الوشاحين بقوّة إلى أنهم إذا أرادوا لموشحاتهم أن تنال الاستحسان وأن يطرب لها الناس لا بدّ أن يعكفوا على القصيد وتلاحينه وألفاظه بحيث تتخلّق موشّحاتهم بين ألحانه